المبحث الثالث
خروج المسخرات عما سخرت له

خلق الله سبحانه المسخرات وذللها ومكن الإنسان من التعامل معها أو السيطرة عليها وذلك كله لخدمة الإنسان ؛ إذن فخلق المسخرات مصحوب برسالة لها توفيها في خدمة الإنسان وهي مصروفة لهذا الهدف ولا تستطيع أن تفكر في تعديله أو تبديله كما أنها لا يمكنها القيام بعمل آخر بخلاف ما خلقت من أجله . وتتلقى المسخرات أوامر الخالق بطرق ولغة لا نعلمها ولكن أقربها إلى التصور هو قانون كن فيكون .

ولكن إذا تدخل الإنسان بفعله ليخرج المسخرات عن طبيعتها فسوف ينقلب الحال وتصبح المسخرات وبالاً على الإنسان فمثلا فإن الخالق سبحانه وتعالي أنعم علينا بثمار الفاكهة كغذاء شهي ومتعة يتلذذ الإنسان بمذاقها وينعم بفوائدها ، فإذا قام الإنسان بتحويل عصائرها إلي خمر فقد أفسد جوهر وطبيعة خلقها فإذا هي تنقلب من نعمة إلى نقمة تذهب عقل الإنسان فيتصرف بغير عقل ليفسد صحته وأحواله وأمواله، ومثال أخر، إن الله سبحانه خلق الحديد وأرشدنا إلى استخداماته وإذا بالإنسان يصنع منه أدوات سعيه، ثم يتقدم بالعلم الذي علمه الله له، ويصنع منه ما ييسر له حياته سواء في صناعة وسائل النقل والانتقال وكذلك وسائل رفاهية من ثلاجات وغسالات ....الخ ، ويقوم الإنسان بعد ذلك باستخدام هذا الحديد في صناعة البنادق والمدافع والقنابل والألغام التي يؤدي استخدامها إلى تدمير المسخرات من جمادات ونباتات وحيوانات بل وتدمر الإنسان ذاته .

فعندما يخرج الإنسان المسخرات عن طبيعة وظائفها فإن المسخرات تنقلب إلى نقمة تعمل على تدمير حياته وتدمير المسخرات التي تمده بأسباب استمرار الحياة .

ومن جانب آخر فإن وسيلة التعامل مع المسخرات هي الأخرى لها علاقة بخروج المسخرات عما سخرت له وذلك يبين عندما سعى الإنسان وبذل الجهد فأرشده الله سبحانه وتعالي إلى إكتشاف مصادر الطاقة فإذا به يستخدم بعض هذه المصادر بطريقة تسئ للبيئة التي يحيا فيها ، فعندما يخرج عادم الوقود من الآلات التي صنعها الإنسان فإنه يحرق غاز الأكسجين الذي يتنفسه الإنسان ويحل محله أنواع من الغازات تضر الإنسان وتؤذيه وتعمل على هلاكه .

إذن إفساد المسخرات وخروجها عما سخرت له إنما يأتي عن طريقين:

أ- إفساد في جوهر وطبيعة المسخرات .

ب- فساد في طريقة التعامل مع المسخرات .

وبالنظر إلى ما ذكرته عن علاقة المسخرات بخالقها وعلى الأخص علاقة تسبيحها وحمدها وسجودها لخالقها وعلى الجانب الآخر فإن غاية خلق الإنسان هي عبادة الله، فنقطة الالتقاء بين الإنسان والمسخرات إنما تكون عند عبادة الله، ونظراً لأن المسخرات إنما تعبد الله بالصرفة فلا يتصور خروجها عن عبادته ولكن الإنسان صاحب الاختيار فقد يخرج عن الطريق السوي ويبتعد عن عبادة الله، هنا يفقد الإنسان التلاقي مع المسخرات وبذلك نتوصل إلى سبب آخر لخروج المسخرات عما سخرت من أجله وهو.

جـ- فقدان التلاقي بين إيمان الإنسان بربه وإيمان المسخرات بخالقها .

واعتقد أنه من الضروري توضيح أسباب خروج المسخرات عن رسالتها ووظائفها التي سخرت من أجلها والتي تتلخص في عبارة جامعة أوردها القرآن الكريم في مواطن عديدة هي «الإفساد في الأرض» ونفصلها فيما يلي :

أولاً: الإفساد في جوهر وطبيعة المسخرات:

يرشدنا المولي عز وجل في قرآنه الكريم إلى أمثلة للإفساد في الأرض باعتباره خروج عن طبيعة الخلق ويحذرنا سبحانه وتعالي من الإفساد في الأرض[1] لأن عواقبه وخيمة ونتائجه وبال على الإنسان ومن أمثلة الإفساد في الأرض مما ورد في القرآن الكريم ما يلي :

صورة الإفساد	رقم الآية	اسم السورة	نص الآية
هلاك الحرث والنسل	٢٠٥	البقرة	وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ

(١) الآية رقم ٥٦ سورة الأعراف ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

صورة الإفساد	رقم الآية	اسم السورة	نص الآية
قتل النفس بغير الحق	٣٢-٣٣	المائدة	مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

ثانياً: فساد في طريقة التعامل مع المسخرات:

ومن أمثلة فساد السلوك الذي يعتبر إفساداً في الأرض وجاء ذكره في القرآن الكريم ما يلي:

صورة الإفساد	رقم الآية	اسم السورة	نص الآية
خسران الكيل والميزان بخس الناس أشياءهم	٨٥	الأعراف	وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
قطع الأرحام	٢٢-٢٣	محمد	فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ

صورة الإفساد	رقم الآية	اسم السورة	نص الآية
نقض عهد الله قطع ما أمر به أن يوصل	٢٥	الرعد	وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ
العلو في الأرض	٤	القصص	إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ

ومن الإفساد في الأرض قطع الطريق وترويع الآمنين وكل ما يفسد المادة أو يفسد في المعنويات [1]

(١) تفسير الشعراوي سورة القصص آية ٧٧ ص ١١٠٢٠

ثالثاً: فقدان التلاقي بين إيمان المسخرات بخالقها وإيمان الإنسان بربه

سبق أن أوضحت علاقة المسخرات بخالقها الأعظم وعرضت بعض الآيات التي تخبرنا بأن المسخرات تسبح لله وتسجد له وأجد ضرورة لإضافة آيتين آخرتين توضحان تلك العلاقة إضافة للآيات السابق ذكرها حينما عرضت علاقة المسخرات بخالقها وهاتين الآيتين هما :

رقم الآية	اسم السورة	نص الآية
٤١	النور	أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ
١٣	الرعد	وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ

معني ذلك أن كل المسخرات تسبح لله مؤمنة به خالقاً لها ومسيراً لأمرها وهذا الإيمان لا يشوبه أدني تفكير للخروج على مقتضياته بل إن هذه المسخرات غير قادرة على القيام بغير التسبيح والسجود لله ، وعلى الجانب الأخر نجد أن غاية خلق الإنسان هي عبادة الله [1] وأن الله سبحانه وتعالي سخر وذلل كل ما في

(١) الآية رقم ٥٦ سورة الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

الكون لخدمة الإنسان الذي استخلفه الله سبحانه في الأرض وذلك كله حتى يقوم الإنسان برسالته وتحقيق الغاية من خلقه وهي عبادة الله الواحد الأحد، فإذا خرج الإنسان عن منهج عبادة الله فإنه بذلك سوف يفقد التآلف والتناغم مع المسخرات المسبحة الساجدة وهنا سوف يتبدل سعي الإنسان في تعامله مع المسخرات إلى إفساد في الأرض وهذا ما سوف أتناوله بالشرح الأكثر تفصيلاً في موضع قادم من هذا البحث إن شاء الله.

رابعاً: انتهاء وجود المسخرات

كما سبق أن أوضحت فإن وجود المسخرات كان أسبق من وجود الإنسان، خلقها الله وأعدها وكلفها رسالتها وألهمها وظائفها لتكون في انتظار الإنسان وخدمته وتقديم مقومات حياته على الأرض إذن فلا جدوى ولا معنى من وجود المسخرات دون وجود الإنسان، ولا حياة للإنسان بدون وجود المسخرات.

فإذا ما شاءت القدرة الإلهية قيام الساعة وانتهاء حياة الإنسان على الأرض فمن المنطقي أن ينتهي وجود المسخرات، بل قد تكون المسخرات لدى إنهاء حياتها هي الوسيلة لإنهاء حياة الإنسان.

وفي ذلك يطالعنا القرآن الكريم بصور انتهاء المسخرات وخروجها عن مقتضي طبيعتها، بل إنها أصبحت في حالة لا تسمح بتسخيرها لخدمة الإنسان وأسوق أمثلة من الآيات التي تشير لذلك فيما يلي :

رقم الآية	اسم السورة	نص الآية
١-٦	الواقعة	إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا
٨-١٣	المرسلات	فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ

رقم الآية	اسم السورة	نص الآية
١-١٤	التكوير	إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ
١-٦	الزلزلة	إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ
١-٥	الانشقاق	إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ

رقم الآية	اسم السورة	نص الآية
١-٥	القارعة	ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ

تلك نماذج من أشكال وأحوال انتهاء وجود المسخرات وكلها تشير إلى الحقائق التالية :

١- إنها لم تعد ذلول ومسخرة لخدمة الإنسان .

٢- أنها تنتهي بشكل يغلب عليه العنف من انفجارت وهزات وتغير في أحوال تلك المسخرات .

٣- أن انتهاء المسخرات مرتبط بانتهاء وجود الإنسان على الأرض .

وعند انتهاء وجود المسخرات وانتهاء وجود الإنسان فلا مجال لوجود النظريات التي تربط بينهما بمعني أنه إذا كانت نشأة نظرية المعاملات في الإسلام اقتضت وجود الإنسان بسعيه والمسخرات بعطائها فإن انتهاء هذا الوجود تنتهي معه نظرية المعاملات في الإسلام ليحل محلها قانون جديد هو الثواب والعقاب وعطاء المولي من جنة ونار جزاء وفاقاً لمن طبق منهج الله في الأرض ومنه ما في نظرية المعاملات في الإسلام .